نشریه علمی فقه، حقوق و علوم جزا
مقاله پژوهشی، سال نهم، شماره ۳۶، تابستان ۱۴۰۴، صفحات ۶۵ تا ۷۳
تاریخ دریافت: ۱۴۰۴/۰۳/۱۰ – تاریخ پذیرش: ۱۴۰۴/۰۴/۰۳

زیبایی‌شناسی کارکرد صرفی در سوره کهف (مطالعه‌ای در دلالت و ساختار)

محمد طاهر نسیم استادیار در گروه زبان عربی دانشگاه تربیت و آموزش کابل، افغانستان.

چکیده

این مقاله زیبایی‌شناسی کارکرد صرفی در سوره کهف را تحلیل می‌کند و نقش ساختار زبانی را در ساخت معنا و زیبایی آشکار می‌سازد. مقاله بر سه ابزار اصلی صرفی متمرکز است: اسم فاعل، فعل مجهول، و اسم تفضیل. اول، نشان می‌دهد که نقش اسم فاعل تنها به دلالت بر فاعل محدود نمی‌شود، بلکه بر اساس صیغه‌اش دلالت‌های متنوعی می‌پذیرد. صیغه مضاف آن (غیر تنوین) برای بیان ثبات و یقین به کار می‌رود، همچون توصیف سرنوشت اهل آتش. در مقابل، صیغه تنوین‌دار آن تجدد و حرکت را بیان می‌کند که به صحنه‌ها زندگی می‌بخشد، چون تصویر سگ که دست‌هایش را دراز کرده یا حال دنیای متغیر. دوم، مقاله نشان می‌دهد که استفاده از فعل مجهول صرفاً پنهان کردن فاعل نیست، بلکه ابزار بلاغی برای برانگیختن هیبت و ابهام در موقعیت‌های خاص است، همچون توصیف عذاب یا روز قیامت. همچنین اهداف دیگری چون تعظیم و ایجاز را نیز خدمت می‌کند، جایی که فاعل به دلیل معلوم بودن برای شنونده حذف می‌شود. سرانجام، مقاله اسم تفضیل را بررسی می‌کند که به عنوان ابزار اقناعی بلیغی به کار می‌رود و با اهداف سوره در برقراری مقایسه میان حق و باطل، ایمان و کفر هماهنگ است. استفاده مطلق آن صفات خداوند را تعظیم می‌کند، در حالی که استفاده مقید آن غرور کافر را افشا و تواضع مؤمن را تأکید می‌نماید. مقاله نتیجه می‌گیرد که این انتخاب‌های صرفی در سوره کهف تصادفی نیست، بلکه بخشی از بافت زبانی محکمی است که اهداف بلاغی و دلالی متن قرآنی را خدمت می‌کند و تأکید می‌نماید که زبان و معنا در ساخت اعجاز تکامل می‌یابند. روش مورد استفاده نویسنده در این مقاله، روش توصیفی-تحلیلی است.

واژگان کلیدی: سوره کهف، کارکرد صرفی، اسم فاعل، فعل مجهول، اسم تفضیل، دلالت و ساختار.

جماليةُ الأداء الصرفى فى سورةُ الكهف(دراسةُ فى الدلالةُ والبنيةُ)

محمد طاهر نسيم نسيم الأستاذ المشارک فى قسم اللغةُ العربيةُ بجامعةُ التربيةُ والتعليم كابول

الملخص

يحلل هذا المقال جماليةُ الأداء الصرفى فى سورةُ الكهف، كاشفًا عن دور البنيةُ اللغويةُ فى بناء المعنى والجمال. يركز المقال على ثلاث أدوات صرفيةُ رئيسيةُ: اسم الفاعل، والفعل المبنى للمجهول، واسم التفضيل. أولاً، يوضح أن اسم الفاعل لا يقتصر دوره على الدلالةُ على الفاعل، بل يتخذ دلالات متنوعةُ بحسب صيغته. فصيغته المضافةُ (غير المنونةُ) تُستخدم للتعبير عن الثبات واليقين، كما فى وصف مصير أهل النار. فى المقابل، تُعبر صيغته المنونةُ عن التجدد والحركةُ، مما يضفى حيويةُ على المشاهد، كصورةُ الكلب باسطًا ذراعيه أو حال الدنيا المتغيرةُ. ثانيًا، يبين المقال أن استخدام الفعل المبنى للمجهول ليس مجرد إخفاء للفاعل، بل هو أداةُ بلاغيةُ لإثارةُ الرهبةُ والغموض فى مواقف معينةُ، كما فى وصف العذاب أو يوم القيامةُ. كما يخدم أغراضًا أخرى كالتعظيم والإيجاز، حيث يحذف الفاعل لعلم السامع به. أخيرًا، يتناول المقال اسم التفضيل، الذى يُوظف كأداةُ إقناعيةُ بليغةُ، تتناسب مع أهداف السورةُ فى عقد المقارنات بين الحق والباطل، والإيمان والكفر. فاستخدامه المطلق يُعظّم من صفات الله، بينما استخدامه المقيد يفضح غرور الكافر ويؤكد تواضع المؤمن. ويخلص المقال إلى أن هذه الاختيارات الصرفيةُ فى سورةُ الكهف ليست عشوائيةُ، بل هى جزء من نسيج لغوى محكم يخدم الأغراض البلاغيةُ والدلاليةُ للنص القرآنى، مؤكدًا أن اللغةُ والمعنى يتكاملان فى بناء الإعجاز، أما المنهج الذى اتبعه الكاتب فى هذا المقال المنهج الوصفى التحليلى.

كلمات مفتاحيةُ: سورةُ الكهف، الأداء الصرفى، اسم الفاعل، الفعل المبنى للمجهول، اسم التفضيل، الدلالةُ والبنيةُ.

المقدمةُ

تُعدُّ سورةُ الكهف إحدى السور القرآنيةُ التى تتميز بغنى بنيتها اللغويةُ وتعدد مستوياتها الدلاليةُ. يهدف هذا المقال إلى دراسةُ المستوى الصرفى فى السورةُ، وتحديداً من خلال تحليل ظواهر لغويةُ محددةُ مثل المشتقات (اسم الفاعل)، والفعل المبنى للمجهول، واسم التفضيل. سنكشف من خلال هذا التحليل عن العلاقةُ الوثيقةُ بين الصيغةُ الصرفيةُ والمعنى الذى تؤديه، مؤكدين أن البنيةُ اللغويةُ ليست مجرد قالب، بل هى أداةُ فعالةُ فى بناء الدلالةُ وتشكيل الصورةُ الفنيةُ فى النص القرآنى.

أهميةُ الموضوع

تکمن أهمیهٔ هذا البحث فی أنه یربط بین علم الصرف، الذی غالبًا ما یُنظر إلیه علی أنه علم جامد وقواعدی، وبین البلاغهٔ والجمالیات القرآنیهٔ. فدراسهٔ التناغم الصرفی فی سورهٔ الکهف تُظهر کیف أن أدوات اللغهٔ تخدم الأغراض البلاغیهٔ للنص، وتُثری فهمنا لعمق الإعجاز القرآنی. کما أن هذا البحث یساهم فی إبراز الجانب التطبیقی للنظریهٔ اللغویهٔ، مما یجعله إضافهٔ علمیهٔ مهمهٔ للمکتبهٔ العربیهٔ فی مجال الدراسات القرآنیهٔ والأسلوبیهٔ.

الأهداف العامهٔ والخاصهٔ

الهدف العام: فهم الکیفیهٔ التی تُسهم بها البنیهٔ الصرفیهٔ فی سورهٔ الکهف فی بناء المعنی الکلی للنص وتشکیل أبعاده الجمالیهٔ.

الأهداف الخاصهٔ: تحلیل وظیفهٔ اسم الفاعل ودلالاته المتنوعهٔ (الثبات، التجدد) بناءً علی صیغته (مضافًا أم منونًا).

الکشف عن الأغراض البلاغیهٔ لاستخدام الفعل المبنی للمجهول، مثل إثارهٔ الرهبهٔ أو التنبیه إلی معلومیهٔ الفاعل.

توضیح دور اسم التفضیل فی أسلوب الإقناع والمقارنهٔ الذی یمیز سورهٔ الکهف.

مشکلهٔ البحث

تتلخص مشکلهٔ البحث فی الإجابهٔ عن التساؤل التالی: هل تُعدّ الاختیارات الصرفیهٔ فی سورهٔ الکهف مجرد تنویع لغوی، أم أنها مقصودهٔ لخدمهٔ دلالات ومعانٍ محددهٔ؟ یواجه الباحث مشکلهٔ الفصل بین الجانب النحوی الصرفی المجرد والبعد البلاغی والجمالی، وهو ما یسعی هذا البحث إلی تجاوزه من خلال تحلیل متکامل یربط بین المستویین.

أسئلهٔ البحث

للإجابهٔ عن مشکلهٔ البحث، سیحاول المقال الإجابهٔ عن الأسئلهٔ التالیهٔ:

ما هی الدلالات المختلفهٔ لاسم الفاعل فی سورهٔ الکهف، وما علاقهٔ هذه الدلالات بصیغته الصرفیهٔ؟

ما هی الأغراض البلاغیهٔ التی حققها استخدام الفعل المبنی للمجهول فی السورهٔ؟

کیف أسهم اسم التفضیل فی بناء أسلوب الإقناع والمقارنهٔ، وما هی دلالات استخدامه المختلفهٔ؟

منهج البحث: اما المنهج المتبع فی هذه المقالهٔ المنهج الوصفی التحلیلی الذی یقوم علی جمع البیانات من المکتبهٔ وتحلیلها.

الدراسات السابقهٔ

لقد تناولت العدید من الدراسات سورهٔ الکهف من جوانب مختلفهٔ، سواء فی التفسیر الموضوعی، أو التحلیل القصصی، أو البلاغی. فقد رکزت بعض الدراسات علی التناغم الصوتی (مثل ظاهرهٔ الفاصلهٔ القرآنیهٔ)، بینما اهتمت أخری بالبعد النحوی. ومع ذلک، فإن الدراسات التی ترکز بشکل متخصص علی الجانب الصرفی کمدخل لفهم الدلالهٔ والجمالیات فی السورهٔ لا تزال محدودهٔ. هذا البحث یهدف إلی سد هذه الثغرهٔ من خلال تقدیم تحلیل صرفی تطبیقی یعمق فهمنا لخصوصیهٔ النص القرآنی.

جمالیهٔ الأداء الصرفی

إنّ جمالية النص الأدبى، وعلى وجه الخصوص النص القرآنى، لا تكمن فى عناصره المنفصلة، بل فى التناغم بين هذه العناصر وتكاملها. فالصيغة الصرفية ليست مجرد هيكل جامد، بل هى وعاء دلالى تتشكل فيه المعانى وتتداخل فيه الأصوات والصور. وكما يرى بعض الباحثين، فإنّ الترتيب التقليدى للدراسة اللغوية، الذى يضع الفعل أساسًا للبنية، يمكن تجاوزه فى الدراسة الأدبية، ليُعطى الأولوية للعنصر الأكثر كثافة وظهورًا فى النص. وفى سورة الكهف، تبرز ظاهرة المشتقات بشكل لافت، مما يجعلها نقطة انطلاق مثالية لدراسة الأبعاد الصرفية والجمالية.

المشتقات

أولا: اسم الفاعل - الثبات والتحول فى صيغة واحدة

يُعدّ اسم الفاعل من المشتقات التى تحمل فى طياتها قدرة فريدة على الجمع بين الدلالة الاسمية (الثبات) والدلالة الفعلية (التجدد والحدوث). وتتحدد هذه الدلالة بشكل أساسى من خلال وجود التنوين أو عدمه (ابن كمال،٢٠١٢).

دلالة الثبات واللزوم (اسم الفاعل غير العامل):

عندما يأتى اسم الفاعل مضافًا إلى معموله، فإنه يفقد التنوين وتتقارب دلالته من دلالة الاسم الجامد، مما يعكس حالة من الثبات واليقين. هذا التوظيف يتناسب تمامًا مع السياقات التى تتطلب تأكيدًا على حقيقة ثابتة أو حكم قاطع لا يتغير (أنيس، ٢٠١٤م).

{وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} (الكهف: ٥١): صيغة "مُتَّخِذَ" جاءت مضافة، لتدل على حكم إلهى قاطع وثابت فى الأزل بعدم اتخاذ المضلين عونًا. إنها صفة ثابتة من صفات الله، وليست فعلًا عابرًا (البروسى، ٢٠١٠).

{فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} (الكهف: ٥٣): على الرغم من أن "الوقوع" فى النار هو حدث مستقبلى، فإنّ إضافة اسم الفاعل "مُوَاقِعُوهَا" تؤكد على اليقين والثبات الذى وصل إليه الكافرون، فقد أيقنوا أيقنًا لا شك فيه أنهم ثابتون وخالدون فى هذه الحالة من العذاب.

{مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا} (الكهف: ٣): صيغة "مَاكِثِينَ" المضافة هنا تعبر عن صفة الخلود والثبات فى الجنة، وهى صفة أبدية لا يطرأ عليها تغيير، مما يتناسب تمامًا مع دلالة اسم الفاعل غير العامل.

دلالة التغير والحدوث (اسم الفاعل العامل):

فى المقابل، عندما يأتى اسم الفاعل منونًا، فإنه يعمل عمل الفعل ويدل على الحدوث والتجدد والتغير. هذا التوظيف الصرفى يساهم فى إضفاء الحركة والحيوية على المشاهد، مما يجعلها أكثر ديناميكية وتأثيرًا.

{وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ} (الكهف: ١٨): جاء اسم الفاعل "بَاسِطٌ" منونًا، ليُصوّر حالة بسط مستمر لذراعى الكلب، مما يجعل المشهد متحركًا وغير جامد. هذه الصيغة تلائم الحالة التى يكون عليها الكلب مع الفتية وهم يتقلبون.

{وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} (الكهف: ٨): استخدام اسم الفاعل "جَاعِلُونَ" العامل يعكس عملية التغيير والتحول التى يمر بها حال الدنيا من حال إلى حال (التيمى، ٢٠٠٧).

{وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} (الكهف: ۴۲): صيغة "خَاوِيَةٌ" المنونة، التي وردت في سياق جملة حالية، تدل على التغير المفاجئ الذي حدث للجنة من حالة النضرة والعطاء إلى الدمار والخواء، مما يؤكد على عدم ثبات نعم الدنيا.

دلالات أخرى لاسم الفاعل

يتجاوز اسم الفاعل ثنائية الثبات والتغير ليحقق دلالات بلاغية أعمق:

التنكير والتركيز على الحدث: في قوله تعالى: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ} (الكهف: ۱۹)، جاء اسم الفاعل "قَائِلٌ" منونًا ليدل على التنكير. فلا يهم من هو القائل، بل المهم هو ماهية القول ومغزاه، وهذا يوجه التركيز نحو الأحداث الرئيسية في السورة (الجرجاني، ۲۰۰۸).

النهي عن الجزم بالمستقبل: في قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا} (الكهف: ۲۳)، التنوين في "فَاعِلٌ" يقرب دلالته من الفعل، ليعكس عدم الجزم بوقوع الفعل في المستقبل. وهو نهي إلهي لربط كل أمر بمشيئة الله.

البعد النفسي: في قوله تعالى: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} (الكهف: ۳۵)، جاء اسم الفاعل "ظَالِمٌ" منونًا. هذا التنوين لا يدل على ثبات الظلم، بل على أنه كان ظالمًا في تلك اللحظة التي أدت إلى وقوع العقوبة. ولو كان اسم الفاعل مضافًا، "ظالم نفسه"، لدل على استمراره وثباته على الكفر، مما يغلق باب التوبة. وهذا يفتح الباب أمام الأمل في التوبة والعودة إلى الله.

من خلال تحليلنا لصيغة اسم الفاعل، نجد أنها تشكل ظاهرة أسلوبية مميزة في سورة الكهف. فدلالاتها تتأرجح بين الثبات والتحول، وتخدم أغراضًا بلاغية متعددة، سواء في رسم الصور الفنية، أو تجسيد الحالات النفسية، أو تأكيد الحقائق العقائدية. إنّ هذا التوظيف الدقيق يؤكد أن البناء الصرفي للنص القرآني هو بناء مقصود، يخدم المعنى بدقة متناهية.

ثانيًا: الفعل المبني للمجهول – أغراضه البلاغية والجمالية

يُعرف الفعل المبني للمجهول في علم النحو بأنه ما حُذف فاعله، وتولى المفعول به أو غيره مقامه. إلا أن هذا الإجراء النحوي لا يقتصر على الغايات التركيبية فحسب، بل يتعداها إلى تحقيق أبعاد بلاغية عميقة في النص القرآني. ففي سورة الكهف، يتجلى استخدام المبني للمجهول كأداة أسلوبية فاعلة، تسهم في إثراء الدلالة وتوجيه المتلقي نحو معانٍ غير مباشرة، سواء كانت هذه الأغراض تتعلق بالرهبة، أو التعظيم، أو حتى الانسجام الصوتي.

۱- إشاعة جو من الرهبة والغموض

يُستخدم المبني للمجهول في سورة الكهف لإحاطة الموقف بهالة من الغموض والرهبة، حيث يكون الأثر واضحًا للعيان بينما يظل الفاعل مجهولًا أو غامضًا، مما يزيد من تأثير المشهد على النفس (الحامضي، ۲۰۱۷).

{وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} (الكهف: ۱۸): في هذا السياق، لم يُذكر الفاعل الذي ملأ قلب المطلع على الفتية رعبًا، ليظل مصدر الرعب سرًا غامضًا، لا يُعرف كنهه. هذا الإخفاء مقصود، لأن العناية الإلهية التي كانت تحيط بالفتية هي مصدر الرعب، وغموضها يزيد من هيبة الموقف وعظمته، مما يحول الرعب إلى وسيلة حماية إلهية.

{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} (الكهف: ٤٢): يُعبر هذا الفعل المبنى للمجهول عن كارثة حلت بحديقة صاحب الجنتين. إن حذف فاعل "أُحِيطَ" يترك الكيفية التى دمرت بها الجنة غامضة، هل كانت صاعقة؟ أم ريحًا عاتية؟ هذا الغموض يزيد من رهبة العقوبة الإلهية، ويجعلها أكثر إيلامًا. فالمهم هو الأثر (دمار الثمر) وليس المسبب المباشر، مما يربط الحدث بقوة الله المطلقة التى لا يمكن التنبؤ بها (الزمخشرى، ١٩٩٨).

{وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا} (الكهف: ٤٨): فى مشهد يوم القيامة المهيب، يُقدم الخلائق جميعًا للعرض على الله. استخدام الفعل "عُرِضُوا" مبنيًا للمجهول يجرّد المخلوقات من أى فاعلية أو قدرة على الحركة، فهم مفعول بهم، يُقادون ويُعرضون على ربهم دون حولٍ منهم ولا قوة. هذا الأسلوب يعمق الشعور بالرهبة المطلقة أمام جلال الخالق وعظمته (السقا، ٢٠٠٩).

تتكرر هذه الدلالة فى آيات أخرى مثل: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} (الكهف: ٤٩)، {وَمَا أُنذِرُوا} (الكهف: ٥٦)، و{ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ} (الكهف: ٥٧). جميع هذه الأفعال تُستخدم فى سياق الإنذار والعذاب، مما يؤكد على أن المبنى للمجهول هنا أداة أسلوبية ثابتة لإشاعة جو من الرهبة فى مواقف العقاب والحساب.

٢- الشهرة والاختصاص

قد يُحذف الفاعل لأنه معلوم وشهرته تغنى عن ذكره، لا بل إن حذفه يكون أبلغ وأكثر إيجازًا.

{أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} (الكهف: ٦٦): فى حوار موسى مع العبد الصالح، جاء فعل "عُلِّمْتَ" مبنيًا للمجهول. الفاعل هنا معلوم علمًا تامًا وهو الله عز وجل، فهو وحده مصدر العلم الحقيقى. لذا، كان الحذف هنا أبلغ وأكثر إيجازًا، إذ لا حاجة لذكر الفاعل، فالعلم المطلق لا يأتى إلا من مصدر واحد. هذا الأسلوب يؤكد على اختصاص هذا العلم بالله تعالى وحده (صالح، ٢٠٠٥).

٣- إنكار الفاعلية

يمكن أن يكون حذف الفاعل تعبيرًا عن حالة نفسية للمتكلم، كإنكار فكرة الفاعلية الإلهية أو البعث.

{وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} (الكهف: ٣٦): يُظهر هذا القول على لسان صاحب الجنتين حالة نفسية من الكبر وإنكار البعث. استخدامه للفعل "رُدِدْتُ" مبنيًا للمجهول يعكس تغييب الفاعلية من عقله، فهو لا يعترف بوجود فاعل يبعثه أو يعيده، بل يتحدث عن العودة وكأنها أمر يقع من تلقاء نفسه، مما يتناسب مع فكره الكفرى.

٤- التحرز من ذكر الفاعل

فى بعض السياقات، يُحذف الفاعل لأن ذكر اسمه قد يؤثر سلبًا على المعنى أو يسبب سوء ظنٍ به.

{وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ} (الكهف: ٢٩): يُستغاث بالله فى العادة طلبًا للرحمة، ولكن الغوث هنا يأتى بالعذاب (ماء كالمُهل). لذا، جاء الفعل "يُغَاثُوا" مبنيًا للمجهول. هذا التحرز يمنع من الربط المباشر بين اسم "المغيث" وصفة الرحمة، والغوث الذى يأتى بالعذاب. فالغوث فى هذا السياق غوث على غير العادة، فكان الأسلوب القرآنى دقيقًا فى التعبير عنه (الصبان، ١٩٨٥).

٥- الانسجام اللفظى

يُستخدم المبنى للمجهول أحيانًا لأغراض جمالية بحتة تتعلق بالانسجام الصوتى والإيقاع.

{يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا} (الكهف: ۳۱): جاء الفعل "يُحَلَّوْنَ" مبنيًا للمجهول، بينما جاء الفعل الذى يليه "وَيَلْبَسُونَ" مبنيًا للمعلوم. هذا التناغم الصوتى بين فعلين مختلفى البنيۀ (مبنى للمجهول ومبنى للمعلوم) يخلق جمالًا إيقاعيًا فريدًا. لو قيل "يحلّيهم الله" لكان التعبير صحيحًا من الناحيۀ الدلاليۀ، ولكنه كان سيفقد هذا الانسجام اللفظى والإيقاعى مع الفعل الذى يليه (النسفى، ۱۹۸۹م).

ثالثًا: اسم التفضيل - أداۀ الإقناع والمقارنۀ

يُعد اسم التفضيل من الأدوات الصرفيۀ البليغۀ التى تُستخدم لبيان الزيادۀ فى صفۀ مشتركۀ بين طرفين، سواء كانت هذه الزيادۀ فى الفضل أو النقص. وقد لوحظ تكرار استخدامه بشكل لافت فى سورۀ الكهف، وهى سورۀ مكيۀ تهدف إلى ترسيخ العقيدۀ وإثبات الحقائق. يتناسب هذا الأسلوب مع طبيعۀ الدعوۀ فى هذه المرحلۀ، حيث يعتمد على عقد المقارنات الواضحۀ التى تدفع العقل السليم لاختيار الأفضل والأحق. وقد جاء اسم التفضيل فى السورۀ على حالات متنوعۀ، كل حالۀ منها تخدم غرضًا بلاغيًا محددًا (عبابنۀ، ۲۰۰۰).

۱- التفضيل المطلق (حذف المفضل عليه)

فى بعض السياقات، يتم حذف المفضل عليه لأنه لا يوجد طرف يمكن مقارنته بالمفضل، مما يجعل التفضيل مطلقًا. هذا الأسلوب يُستخدم لتعظيم المفضل وإبراز تفرده.

{رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} (الكهف: ۲۱): فى هذه الآيۀ، لا يمكن مقارنۀ علم الله بعلم البشر، فجاء اسم التفضيل "أَعْلَمُ" مطلقًا بدون ذكر المفضل عليه. هذا الحذف ليس نقصًا، بل هو تأكيد على أن علم الله هو الغايۀ القصوى التى لا يوازيها شىء، مما يتناسب مع الفكرۀ الرئيسيۀ للسورۀ حول أهميۀ العلم الإلهى (عبد الجليل، ۱۴۱۸هـ ق).

تكرار الصيغۀ: تتكرر صيغۀ "أَعْلَمُ" فى مواضع أخرى، مثل: {قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} (الكهف: ۲۲) و {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} (الكهف: ۲۶). هذا التكرار يؤكد على محور السورۀ الرئيسى المتعلق بالعلم، ويجعل من الله المصدر الوحيد للعلم الصحيح واليقين.

{مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ} (الكهف: ۹۵): هنا، يوضح ذو القرنين أن ما أعطاه الله من قوۀ وتمكين هو "خَيْرٌ" من أى مساعدۀ بشريۀ. لم يذكر المفضل عليه لأن ما كان من الله لا يماثله شىء. هذا التوظيف يعكس أيضًا نفسيۀ ذى القرنين المؤمنۀ التى تكتفى بما آتاها الله، ولا ترى قيمۀ كبيرۀ فى قوۀ البشر المحدودۀ.

۲- التفضيل المقيد (ذكر المفضل عليه)

فى حالات أخرى، يُذكر المفضل عليه لغرض بلاغى محدد، وهو توضيح الفارق بين طرفى المقارنۀ، مما يسهل على المتلقى عمليۀ الاختيار.

{أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} (الكهف: ۳۴): يبرز هذا القول نفسيۀ صاحب الجنتين المغرورۀ والمتعلقۀ بمتع الدنيا. تكرار اسم التفضيل "أَكْثَرُ" و "أَعَزُّ" مع تمييزهما بـ "مالًا ونفرًا" يعكس حرصه الشديد على التفاخر بملذات الدنيا التى يظن أنها مصدر عزته.

{إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا} (الكهف: ٣٩): فى المقابل، يرى المؤمن متاع الدنيا من منظور مختلف. استخدامه لاسم تفضيل واحد "أَقَلَّ"، دون تكرار، يدل على أنه لا يعتبر هذه المتع مجالًا حقيقيًا للمفاضلة. كما أنه يصف الجنة بـ "جنتك" بدلاً من "جنتين"، مما يعكس نظرة المؤمن إلى الدنيا كشيء واحد زائل (فضل، ٢٠١٦).

{فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} (الكهف: ٨١): هنا، يظهر التنوع فى استخدام اسم التفضيل. فمع "خَيْرًا" (فى سياق الاستبدال بطفل آخر)، يُذكر المفضل عليه "منه". أما مع "أَقْرَبَ رُحْمًا"، فيُحذف المفضل عليه، لأن رحمة الله لا تُقارن. وهذا يؤكد على أن حذف المفضل عليه يكون مقصوداً عندما لا يكون هناك وجه للمقارنة.

٣- المفاضلة السلبية

يُستخدم اسم التفضيل أيضًا للدلالة على الزيادة فى النقص والذم، مما يبرز قبح الصفة.

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} (الكهف: ١٥): هنا، يدل اسم التفضيل "أَظْلَمُ" على أن افتراء الكذب على الله هو أعظم الظلم. صيغة الاستفهام فى الآية تخرج عن معناها الحقيقى لتفيد المبالغة، مؤكدة أن هذا الظلم لا يوازيه ظلم آخر.

٤- التفضيل على التوهم

يُمكن لاسم التفضيل أن يعكس حالة نفسية من الغرور أو الكفر، حيث يُبنى التفضيل على وهم لا حقيقة له.

{وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} (الكهف: ٣٦): يعكس هذا القول نفسية صاحب الجنتين المتعجرفة. فبناءه لاسم التفضيل "خَيْرًا" على توهم بأنه سيجد أفضل مما كان له فى الدنيا، هو دليل على عماه عن الحقيقة ووصوله إلى الكفر والإنكار.

تمييز اسم التفضيل

تُعد ظاهرة التمييز فى سورة الكهف عنصراً مهمًا يخدم أهداف اسم التفضيل. فالتمييز يعمل على إزالة الإبهام، مما يجعل المقارنة أكثر وضوحًا وإقناعًا.

{أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} (الكهف: ٧): يحدد التمييز "عَمَلًا" مجال المفاضلة، ليوجه الإنسان إلى العمل الصالح كمعيار أساسى (عمر، ٢٠١٨).

{هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} (الكهف: ٤٤): التمييز هنا يوضح أن الأجر عند الله هو "خَيْرٌ" فى جانبى الثواب والعاقبة، مما يجعله أكثر تحديداً وإقناعًا.

{بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} (الكهف: ٢٩): يتكرر التمييز فى أساليب أخرى كالمدح والذم، ليضفى وضوحًا على الأوصاف، مما يرسخ فى الذهن صورة النعيم أو الجحيم.

المناقشة

لقد كشف التحليل الصرفى لسورة الكهف عن حقيقة جوهرية: وهى أن اختيار كل صيغة صرفية، من اسم فاعل، أو فعل مبنى للمجهول، أو اسم تفضيل، لم يكن مصادفة، بل كان جزءاً من بنية لغوية متكاملة تهدف إلى تحقيق أبعاد دلالية وجمالية محددة. إن التناغم بين هذه المستويات اللغوية هو ما يمنح النص القرآنى عمقه وتأثيره.

لقد أظهرنا كيف أن اسم الفاعل يتجاوز وظيفته التقليدية كدال على الفاعل، ليتحول إلى أداة تصويرية مرنة. فاستخدامه بصيغة الإضافة (غير المنون) أسهم فى التعبير عن الثبات واليقين المطلق، كما فى يقين أهل النار بمصيرهم أو ثبات الحكم الإلهى. وفى المقابل، فإن استخدامه بصيغة التنوين عكس حالة من التجدد والحركة، مما أضفى حيوية على المشاهد، كصورة الكلب باسطًا ذراعيه أو حال الدنيا المتغيرة. هذا التوظيف المتقن يؤكد أن الصياغة الصرفية هى فى حد ذاتها وسيلة للتعبير عن الفكرة المركزية للنص.

كذلك، برهن التحليل على أن الفعل المبنى للمجهول ليس مجرد إخفاء للفاعل لسبب نحوى، بل هو وسيلة بلاغية لإثارة مشاعر معينة لدى المتلقى. فحذف الفاعل فى مواقف مثل "وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا" أو "وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ" كان يهدف إلى إشاعة جو من الرهبة والغموض، مما يجعل الأثر العقابى أكثر هولًا. وفى مواضع أخرى، مثل "عُلِّمْتَ"، كان الحذف يخدم غرضًا بلاغيًا آخر هو التعظيم والإيجاز، لأن الفاعل (الله) معلوم بالضرورة، وذكره قد يقلل من بلاغة الإيجاز. هذا التنوع فى أهداف الحذف يبرز مرونة الأسلوب القرآنى وقدرته على توجيه دلالة النص.

وأخيراً، كان توظيف اسم التفضيل فى سورة الكهف وسيلة إقناعية بليغة، تتناسب مع المرحلة المكية التى كانت بحاجة إلى عقد مقارنات بين الحق والباطل. سواء كان التفضيل مطلقًا فى سياق تعظيم علم الله وقدرته، أو مقيداً فى سياق المقارنة بين المؤمن والكافر، فإن صيغة التفضيل كانت بمثابة دعوة للعقل البشرى ليتدبر ويختار الأفضل. كما أن استخدام التمييز مع اسم التفضيل قد زاد من وضوح هذه المقارنات، مما جعل الاختيار بين الخير والشر أكثر جلاءً.

الاستنتاج

فى الختام نستنتج مما سبق، يمكن القول: إن التحليل الصرفى لسورة الكهف يكشف عن حقيقة أن الصيغة اللغوية جزء لا يتجزأ من المعنى. إن كل اختيار صرفى فى السورة، من حركة إلى ثبات، ومن معلوم إلى مجهول، ومن تفضيل إلى ذم، يعمل على إبراز الفكرة المركزية للسورة: وهى الصراع بين الإيمان والكفر، والعلم والجهل، والتواضع والكبر.

إن التوظيف الدقيق للمشتقات والأفعال المبنية للمجهول وأسماء التفضيل، لم يكن مجرد تنويع أسلوبى، بل كان خياراً جمالياً ودلالياً مقصوداً، أسهم فى:

* رسم الصور الفنية: من خلال تحريك المشاهد وتجسيد الحالات النفسية.
* بناء الدلالة: عبر التعبير عن الثبات أو التجدد، واليقين أو الغموض.
* خدمة الغرض البلاغى: كالإقناع والترهيب والتعظيم.

وهذا يؤكد أن النص القرآنى لا يمكن دراسته بشكل منفصل الأجزاء، بل يجب النظر إليه كوحدة متكاملة تتناغم فيها الأصوات والصيغ والتراكيب لبناء معنى عميق ومتعدد الأبعاد.

المصادر والمراجع

[١] القرآن الكريم.
[٢] ابن كمال. باشا. (٢٠١٢). أسرار النحو، تحقيق، احمد حامد، عمان: منشورات دار الفكر، بيروت – لبنان.
[٣] أنيس، إبراهيم. (٢٠١٤م). موسيقى الشعر، الناشر: دار الملايين – القاهرة.
[٤] البروسي، إسماعيل. (٢٠١٠م). تفسير روح البيان، المجلد الخامس، ط٢، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.
[٥] التيمي، سعد محمد. (٢٠٠٧). اتجاهات البلاغية في تفسير البحر المحيط، الناشر: مكتبة الرسالة، بيروت – لبنان.
[٦] الجرجاني، عبد القاهر. (٢٠٠٨). دلائل الإعجاز، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان.
[٧] الحامضي، غالب بن محمد. (٢٠١٧). أسلوب الالتفات وأقسامه في القرآن الكريم، الناشر: دار الكتب العلمية، القاهرة – مصر.
[٨] الزمخشري، محمود جار الله. (١٩٩٨م). أساس البلاغة؛ تحقيق فريد نعيم وشوقي المعري، ط٢، الناشر، دار ابن كثير للنشر والتوزيع – بيروت.
[٩] السقا، محمود عبد الحميد. (٢٠٠٩). من الدراسات البلاغية للقرآن الكريم سورة المؤمنون نموذج تطبيقي، الناشر: دار الفكر، طنطا – مصر.
[١٠]صالح، مخيمر. (٢٠٠٥). معجم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، الناشر: دار الكتب الثقافي، القاهرة – مصر.
[١١]الصبان. (١٩٨٥). حاشية الصبان المجلد الثالث، الناشر: مكتبة الرسالة، بيروت – لبنان.
[١٢]عبابنة، يحيى. (٢٠٠٠م). دراسات في فقه اللغة والفنولوجيا العربية، ط١، الناشر: دار الشروق – عمان.
[١٣]عبد الجليل، عبد القادر. (١٤١٨هـ ق). هندسة المقاطع الصوتية، ط١، الناشر: دار الصفاء للنشر والتوزيع – عمان.
[١٤]عمر، أحمد مختار. (٢٠١٨م). دراسات الصوت اللغوي، ط١، الناشر: درا الرسالة – بيروت.
[١٥]فضل، صلاح، علم الأسلوب مبادئه إجراءاته، الناشر: دار الكتب العلمية، القاهرة – مصر.
[١٦]النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين. (١٩٨٩م). تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)؛ حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي. راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.